رحلتي مع السرطان

صحافي يروي معايشته وصراعه مع «الإرهابي الأول» في العالم

كمال قبيسي





كمال قبيسي

رحلتي مع السرطان

صحافي يروي معايشته وصراعه مع «الإرهابي الأول» في العالم



الكتاب: **رحلتي مع السرطان**

صحافي يروي معايشته وصراعه
مع «الإرهابي الأول» في العالم

المؤلف: **كمال قبيسي**

التصنيف: **سرطان - تجربة ذاتية - توجيه صحي**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: أكتوبر (تشرين الأول) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-49-8

الكتاب متوفر على الإنترنت: مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com



www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة

P. O. Box: 333577 Dubai - UAE

Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان

P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon

Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

1 - الحياة والموت والسرطان

الإنسان معتاد على الشعور بالحياة التي لا يعرف بديلاً عنها إلا بالتصورات، برغم أنه الوحيد بين الكائنات الذي يعي تماماً أنه سيأتي عليه يوم يفنى فيه ويموت لأنه يرى كل الأنفس الحية -وبينها الناس من حوله- يتساقطون أمواتاً أو قتلى في كل لحظة، الواحد بعد الآخر، أو بالجملة عند الكوارث والنكبات.

كما يتناسى الإنسان هذا المنطق دائماً ليكذب على نفسه ويقنعها بأنه باقٍ في الحياة وهي باقية فيه إلى ما لا نهاية، فيعيش مدركاً أنه سيموت، لكنه لا يصدق ذلك إلا حين يخبره طبيب مختص بما يقنعه أخيراً أن الساعة حانت، ليعي أنه ممّن يموتون، لأن أخطر مُهدّدٍ للحياة قد تمكّن منه وتبرعم فيه، وهو الإرهابي الأول في العالم: السرطان.

والسرطان ليس مرضاً كبقية الأمراض، إنما هو حالة غير عادية من العبث والجنون والفوضى تحدث في خلايا عضو من الجسم لسبب من الأسباب، فتخرج عن نظام نموها المحدود والمبرمج أصلاً من الجسم نفسه، وتبدأ بالنمو على حسابها الخاص منفلتة من أية قيود، فتتزايد وتتكتل بلا توقف حتى تسيطر على العضو كقوة خارجة عن القانون العام وتلتهمه التهاماً، ثم يتسلل بعضها منتشراً كما أفراد العصابات إلى عضو آخر، ومن بعده إلى سواه، في عمليات تسلل وتسرطن لا تنتهي إلا بنهاية الحياة نفسها.

هذه الحالة هي عملية انتهاك، وغزوة غير عادية لا يملك جسم الإنسان ما يواجهها به إلا سلاح المكافحة التقليدية للأمراض العادية، وهي المضادات الحيوية. لذلك فحين يرسل الجسم بقواته لمكافحة الخلايا المتسرطنة في العضو المصاب، فإنه يجد نفسه كمن يقاتل طائرة حربية ببندقية للصيد عادية، لأنه سيدرك أنه دخل حرباً غير متكافئة، تماماً كما يحدث لأي جيش نظامي يواجه حرب عصابات ليس مهيئاً في الأصل لخوضها.

وخسارة الجسم لمثل هذا النوع من الحروب هي حتمية دائماً، لأنها متعبة وتستنزف منه الكثير وتقضي على أعضائه واحداً بعد الآخر، وعلى قوة الردع والتصدي والممانعة فيه، كما وعلى

مسببات استمراره ككيان حي، إلا إذا حصل -قبل فوات الأوان- على «دعم من الخارج» يشن حرباً بسلاح جديد وبأسلوب «الأرض المحروقة» على الخلايا المتسرطنة والسليمة معاً، فيبيدها عن بكرة أبيها، ويتم تخليص العضو المتسرطن من الخلايا الخبيثة التي لا تعود لتنمو فيه ثانية، إلا في ظروف معينة يشرحها الأطباء المختصون. أما الخلايا السليمة فتعود لتتوالد مع الوقت حاملة الحيوية إلى العضو من جديد، وعندها يحدث الشفاء من ألد أعداء الأحياء.

2 - مواجهة السرطان

أكتب هذا السيناريو التبسيطي لشرح ما يحدث في الساحة المتسرطنة ليعرف المصابون بالسرطان، أو من يخشون من تمكنه منهم في يوم من الأيام، بأن عبارة «دعم من الخارج» هي في مساعدة الجسم لمكافحة هذا المرض الخطير، كما تعني اللجوء إلى طرق العلاج الجراحي أو الإشعاعي أو الكيمياوي وغيره، والتي تقدمت في السنوات الأخيرة إلى درجة أصبحت الأمل الحقيقي الوحيد للتخلص نهائياً من خلايا خبيثة تموضعت في الجسم بعد أن تسللت إليه ممتطية حصان طروادة وعلى صهوته الموت الأكيد.

أنا نفسي أصبت بالسرطان، وخضت معه معارك كثيرة ومتنوعة. لكني عندما خضعت للعلاج وانتهيت من آخر مرحلة شفائية، وأمضيت فترة نقاهة امتدت لأيام قليلة جداً، عدت بعدها

إلى عملي كالمعتاد، وإلى حياتي كما كانت؛ مع تمنٍّ من صديقين زميلين في أن أكتب عن الذي عايشته في تلك الفترة، بأسلوب شخصي مبسط، عارضاً التجارب والمشاعر التي عايشتها أثناء اكتشاف المرض وبالتالي أثناء فترة العلاج، لعل في ذلك فائدة للناس، فيتعرفوا على هذا المرض وعلى سبل مواجهته.

قد يكون هذا الكتاب صغيراً، لكن فعله كبير حيث يجد فيه القراء شرحاً وافياً للكثير من المجهول عن أخطر الأمراض، وقد يستمد القارىء قوة منه ولو صغيرة تساعده بشكل كبير في مكافحة المرض، أو على الأقل مكافحة مسبباته، كالسيجارة التي سببت لي سرطان الحبال الصوتية، والتي قد تكون بين أناملك وأنت تقرأ هذه الكلمات، أو بين أنامل عزيز عليك، من دون أن يعرف أو تعرف أن كل 15 سيجارة تدخنها توقظ عدواً صامتاً لا تشعر به على الإطلاق فينهض وينشط، وباستيقاظه تتبرعم خلية سرطانية في حنجرتك أو رئتيك، فيتكرر التدخين وتتكاثر معه الخلايا المتسرطنة إلى أن تكتشف فجأة أن ملك الأمراض تمكن منك.

هذا ما حدث معي تماماً بعد ظهر أحد أيام سبتمبر (أيلول) 2009 حين كنت في البيت واقفاً عند نافذة الصالون، مدخناً سيجارة أنفث دخانها إلى الخارج، ومتحدثاً في الوقت

نفسه إلى ابنتي، وحيدة العائلة، فسألتها: «ما رأيك لو نطلب طعاماً من المطعم الياباني؟». كان نصف هذا السؤال مسموعاً لي ولها، أما نصفه الآخر فكان مرفقاً ببحة طرأت فجأة على صوتي وسط العبارة، هكذا من دون أي سبب، فاستغربتها وأعدت السؤال، لكن البحة استمرت.

ولأن الثقافة الصحية العميقة تنقصني، كمعظم الناس العاديين تقريباً، فقد اعتقدت أن تلك البحة طبيعية كأي بحة، لذلك أهملتها آملاً أن تزول بعد أيام قليلة كما تزول أي بحة يصاب بها أحدهم؛ لكنها استمرت أسبوعاً وأسبوعين، مع ذلك لم أهتم بها على الإطلاق وواصلت حياتي بشكل طبيعي.

ولأنها استمرت ثلاثة أسابيع تقريباً وبلا أي تغيير، فقد سألت عنها -وبشكل عابر- صيدلانياً كنت أمر بجوار محله القريب من حيث أسكن في لندن، فأخبرني بأنها قد تكون التهاباً في الحنجرة، ونصحني باستشارة طبيب لوصف دواء مناسب. لكني لم أتصل بالطبيب إلا بعد أكثر من شهر على استمرارها.

3 - الخزعة

ولم يعرفني طبيب العائلة حين قمت بزيارته، لأني لم أزره سوى مرة أو مرتين، ولأمر طبيعي وفضولي أكثر مما هو صحي طوال خمس عشرة سنة من وجودي في لندن، فوصف لي دواءً ثم لفظ عبارة أزعجتني كثيراً، خصوصاً أنه قالها بجدية انطوت على تحذير: «إذا لم تتحسن فعليك القيام بسرعة بما نسميه «بايوبسي» في المستشفى، وسأحدد لك موعداً منذ الآن كسباً للوقت فيما لو لم ينفع الدواء». فسألته عن معنى تلك الكلمة الإنجليزية، وشرح لي معنى «بايوبسي»، وهي قيام جراح بأخذ عينة من الحنجرة ليتعرف عبر فحصها بالمختبر إلى سبب البحة، فسألته عن السبب الذي يعتقد أنه قد يظهر بعد الفحص، فقال: «لا أدري، قد يكون ورماً أو أي شيء آخر، دعنا لا نستبق الأمور».

واستبقت الأمور بعد شرائي للدواء، فأسرعت أولاً إلى القاموس لأرى فيه أن «بايوبسي» تعني «خزعة» بالعربية، وهو ما قادني إلى القراءة عن الخزعات وأنواعها في الإنترنت، متذكراً في الوقت نفسه عبارة الطبيب بأن السبب قد يكون ورماً إن لم يتحسن الصوت بفعل الدواء، وهو ما حدث فعلاً، فقد مرّ أسبوع ولم يطرأ أي تحسن، فجزعت وبدأت أشعر بنوع غريب من القلق والخوف من نتائج فحص «الخزعة» التي قرر طبيب آخر زرته القيام بها.

وقبل زيارتي للطبيب أسرعت إلى الكمبيوتر لأقرأ بالعربية عن البحة وأسبابها، وعن أورام الحنجرة، فما عثرت على ما يُشبع فضولي، سوى فقرات هنا وهناك وموضوعات متكررة وغير مترابطة، تبث فيك القلق من دون أي سبب طبي حقيقي، بل إن مئات الموضوعات والدراسات المختصة بالبحة المنشورة على الإنترنت لا تذكر أنها قد تكون من أهم أعراض سرطان الحبال الصوتية، وهو واحد من 200 سرطان رئيسي تتفرع إلى 150 ألف نوع من السرطان الذي يستوطن سنوياً في 12 مليون إنسان، ويفتك بحوالي 8 ملايين نسمة، وفق إحصاءات نشرتها في مايو (أيار) 2009 منظمة الصحة العالمية، وفيها ما يشير إلى أن السرطان يقضي سنوياً على أكثر من نصف 15 مليون إنسان، وهذا العدد يوازي عدد الذين قضوا نتيجة 4 سنوات من القتال في الحرب العالمية الأولى، أي 8 ملايين شخص تقريباً.

قرأت في الإنترنت أشياء مضحكة حقيقة، وبعضها لأطباء مختصين بالحنجرة وأمراضها في المنطقة العربية، كقول أحدهم إن مضاعفات العلاج الإشعاعي لسرطان الحبال الصوتية تنتهي بانتهاء العلاج، في حين أنها تستفحل وتتأصل بعده مباشرة، بل تتصف بالفظاعة وبلؤم نادر فتجعل من ضحيتها «مزبلة نفايات» بكل ما يعنيه هذا التعبير.

قرأت لمختصين كثيرين أيضاً أن القيح هو من المضاعفات، وهذا صحيح، ولكن لم يزد أي منهم ولا أي كلمة عن هذا القيح المعروف باسم «العمل» في التعابير الشعبية. لا تقرأ لماذا ولا أين يحدث القيح في الجسم، كما لا تقرأ أي شيء عن المضاعفات سوى ترددها بطريقة لا تفيد.

4

وقرأت بالإنجليزية أيضاً وبغيرها من اللغات، فوجدت محتوياتها أفضل بكثير مما في العربية، لكنها كانت طبية بحتة ينقصها الشرح المبسط والمفيد للقلقين من الناس العاديين، فتابعت السعي وراء المعلومات ما استطعت، ولكن من دون جدوى، لذلك عانيت معاناة حقيقية. من أجل ذلك أنصح من يشعر بأي قلق سرطاني بالحنجرة وما جاورها، أو أي قلق من أي سرطان آخر، أن لا يعتمد على الكتب ولا على ما يقرأه في الإنترنت ولا في غيره، ولا حتى في ما سيقرأه في هذا الكتاب، بل عليه أن يمضي إلى طبيب مختص وماهر ليدرس حالته بدقة ثم يعد له العلاج المناسب، لكي ينجح معه العلاج كما نجح معي إلى الآن.

رغم كل ذلك لم أتوقف عن قراءة الكثير عن الموضوع فيما بعد.

قرأت ثمانية كتب، أحدها من 650 صفحة وعلى رأس قائمة المبيعات الإنجليزية، ومعه قرأت عشرات الكتيبات الصادرة عن جمعيات مكافحة السرطان في بريطانيا، ومثلها من المقالات والتحقيقات والدراسات بلغات عدة على الإنترنت، إلى جانب أسئلة بالعشرات طرحتها على الأطباء وغيرهم، ما جعلني أصاب بالغرور فيما بعد لشعوري بأني أصبحت متخصصاً بسرطان الحبال الصوتية وعلاجه الإشعاعي لكثرة ما قرأت وسألت، إلى درجة أحسست معها أن باستطاعتي تأليف ما تحتاجه المكتبات العربية المفتقرة إلى كتاب ضخم عن مرض استوطنت خلاياه المتسرطنة بالملايين في حنجرتي بعد أن اقتحمتها متسللة إليها كالعصابات طوال أكثر من 16 شهراً من دون أن أدري، حتى فاجأتني بحة في الصوت لتعلمني بأن حنجرتي، وهي بعرض وطول 5 سنتيمترات كأي حنجرة تقريباً، كانت ساحة قتال شرس بين ملايين الخلايا المتسرطنة ونظيرتها الصحية، ومن دون أن أشعر بشيء على الإطلاق، بل كنت آخر من يعلم.

وحاولت وأنا أعاني من غموض المعلومات عن سرطان الحبال الصوتية أن أكتم ما حدث معي عن الآخرين لأنها نكبة

شخصية مؤلمة ولها امتدادات، متسائلاً في الوقت نفسه عما يدفع بالصحافي لأن ينسى نفسه حين يتحول هو بالذات إلى خبر فيستمر بالكتابة عن الأحداث والناس وينسى نفسه من دون أن يكتب ولو كلمة شخصية عن جديد طرأ على حياته، خصوصاً إذا كان الجديد أهم ما في حياته وأخطرها على الإطلاق.

ربما يكون السبب أن الكتابة عن الآخرين هي من متطلبات مهنة الصحافي التي يمارسها يومياً، وهو ما استدركه مدير عام محطة «العربية» الصديق الزميل عبدالرحمن الراشد. فهو مع معرفته بأني تحايلت طوال 5 أشهر على الآخرين، من أقارب وأصدقاء ومعارف، كي لا يتسرب خبر ما حل بي إلى أي منهم، باستثنائه هو وأفراد عائلتي، فإنه وجدها فرصة ليجعلني أستخرج من الهزائم الصحية انتصارات مهنية، وليفيد الآخرين باقتراح من عنده حين التقينا بعد انتهائي من العلاج في لندن، فقال: «ليتك تكتب عن إصابتك بالمرض وصراعك معه، وليكن بأسلوب شخصي إذا أردت».

5

ولأنه قال «بأسلوب شخصي» فقد شعرت بأنه ربما عانى بدوره مما عانيت حين أراد الإلمام بمعلومات عن المرض بعد أن أخبرته بأنه تمكن مني، وهو أنك إذا أردت التعرف مثلاً إلى سرطان الحنجرة، أو غيره من السرطانات وهي كثيرة للأسف، كما والتعرف إلى طرق علاجه عبر البحث في الكتب أو في ما تعثر عليه من موضوعات ودراسات في الإنترنت، فستتعب ويخيب ظنك إلى حد كبير، لأنك لن تعثر سوى على معميات لا يفهمها إلا المتخصصون.

لا تجد في ما تقرأ أي تبسيط للمعقد عن مرض خطير وليس بالهين، إلا إذا تم اكتشافه باكراً. لا تجد مثلاً أي موضوع

مبسط عن سرطان الحبال الصوتية أو غيره، ولا أي تحقيق لصحافي واجه المرض، كزميل أعرف أنه أصيب به قبل 5 سنوات لكنه لم يكتب كلمة واحدة. ولن تقرأ لأحد كتب شيئاً شخصياً حول الموضوع ليفيد به الآخرين. ستجد أن ما بحثت عنه مكتوب بطريقة يحتاج الواحد منا للدخول ثانية إلى الجامعة ليفهمه، فيضيع وقتك من دون أن تخرج بصيد ثمين، وينقلب إليك البصر بعد التكرار «خاسئاً وهو حسير» وفق التعبير الرائع في التنزيل القرآني الكريم.

ونزلت عند اقتراح الزميل الراشد، فكتبت عن الموضوع بعد انتهاء العلاج بشهر تقريباً، ووجدت أن ما كتبته نال إعجاب من قرأوه، ومنهم الصديق والزميل تركي الدخيل، معدّ ومقدم برنامج «إضاءات» الأسبوعي في محطة «العربية» بدبي، فقد اقترح عليّ بدوره حين التقينا على مائدة عشاء في لندن أن أتوسع في الموضوع أكثر وبأسلوب شخصي فيه لمحات القصة الواقعية، ففي رأيه أن كتاباً من هذا النوع لا بد أن يملأ فراغاً في المكتبات العربية.

الواقع أن الفراغ كبير في المكتبات العربية، حتى والأجنبية، المفتقرة إلى عشرات الكتب المبسطة عن المرض وعلاجه ومراحل التعايش والصراع معه على كل صعيد، إلا أن مشكلة هذا النوع من الكتابات هو أنها حساسة جداً، وكلمة واحدة

ترد فيها على سبيل الخطأ قد تسبب القلق لمصاب بالسرطان قرأها والتبس عليه معناها، والقلق يتطور أحيانا إلى ذعر ينطوي المصاب معه على ذاته ويدخل في صراع مع خوف وعذابات نفسية عشوائية قد تقضي عليه بأسرع مما ينال منه السرطان نفسه.

وهناك مشكلة ثانية، وهي أن هذا النوع من الكتب يتطلب شرحاً واقعياً وعلمياً وبأسلوب التحقيق الصحافي ليبدو واضحاً ومبسطاً للجميع، وهو من أصعب ما يمكن تحقيقه لأنه من المستحيل العثور في العالم كله على مؤلف يتمتع بأربع ميزات معاً: أن يكون طبيباً مختصاً بالسرطان، وفي الوقت نفسه صحافياً مختصاً بكتابة التحقيقات، ومصاباً بالمرض أو أصيب به، ومرَّ بجميع مراحل التعايش أوالصراع معه، علاوةً على أن يرضى بتأليف كتاب عن الموضوع ليفهمه الجميع، عندها فقط سنقرأ في ما يسد الفراغ الكبير في المكتبات.

6

لم تقع عيناي بأي لغة، كما ذكرت، على أي موضوع كتبه صحافي عانى من سرطان الحنجرة لأستفيد منه، فرحت واشتريت بعض الكتب. قرأتها وأنا أتناول الدواء المضاد للالتهابات عله يريحني من البحة الغريبة التي كاد صوتي يختفي معها، فانتهى الدواء وانتهيت من قراءة بعض الكتب التي وجدتها جميعها طبية بحتة أيضاً، فيما استمرت البحة واستمر القلق الذي حملني ثانية إلى طبيب العائلة، فصارحني وقال لي: «الأمر يتطلب السرعة... عليك بالخضوع لعملية جراحية في المستشفى ليقوموا بأخذ عينة من حنجرتك». فقلت: «OK... أنا مستعد». وجاء الموعد من المستشفى الحكومي بعد أسبوع مفاجئاً، لأنهم حددوه يوم 10

كانون الثاني (يناير) 2010 فيما كنت في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) 2009، أي أن الموعد تم تحديده بعد 75 يوماً تقريباً.

تذكرت أنني أحمل في محفظتي بطاقة تأمين صحي دولية تنفع في 4 قارات وتمنحها «مجموعة إم.بي.سي» للعاملين لديها في «العربية» أو قناة «إم.بي.سي» نفسها، وأسرعت أبحث عن أشهر طبيب للحنجرة ببريطانيا، وعثرت عليه وزرته برفقة زوجتي وابنتي، فقام بفحص الأذنين والفم بمنظار، ثم جاء بكاميرا صغيرة تدلت من أنفي بعد أن وضع فيه جرعة من المخدر تنشقتها فمر بها على حنجرتي وراح ينظر إليها عبر العدسة لمدة دقيقتين تقريباً.

بعدها جلس البروفيسور «آر.أس ديللون» عند طاولته وراح يكتب، فارتحت لأني اعتقدته يكتب اسم دواء سيصفه لي، إلا أنه كان يكتب إلى «مستشفى برانسس غريس» المجاور لبيتي في لندن، بضرورة الإسراع بتخصيص غرفة لإجراء «خزعة» يتم عبرها انتزاع لحمية رآها وقد تورمت في حنجرتي بحجم سنتيمتر واحد تقريباً لإرسالها إلى مختبر لفحصها، ثم قال: «في الحقيقة أنا أشك بوجود ورم لديك لذلك طلبت إجراء الخزعة غداً».

عندها راحت زوجتي وابنتي تبكيان، كأنني فارقت الحياة، فقمت أهدّئهما مما أصابهما من الهلع والخوف، وسط استغرابي

من شعور أحسست به وقد انتابني في تلك اللحظة فجأة. شعرت بعزيمة نادرة حلت في كياني كله وزودتني بشجاعة مطلقة تقريباً، بحيث إنني لم أشعر بأي خوف ولا بأي اضطراب.

بعض الأطباء فسر ذلك بأن الجسم حين يواجه خطراً حاسماً يحل عليه فجأة فإنه يتسلح بدفاعات تخفف من أثر الصدمة على ما يبدو، لذلك لم أشعر بأي خوف حين أخبرني البروفسور الهندي الأصل بأنه يشك بوجود ورم سرطاني في حنجرتي. أما أنا فما زلت مقتنعاً بتفسير ما بعده تفسير: إنها نعمة إلهية تنساب إلى الفؤاد المؤمن بالمبدع الخالق فيستكين أمام الخطر الأكبر.

7

أعترف بأن شعوراً بعيداً عن الخوف انتابني، وإلا لكنت من اللامبالين بالحياة نفسها. شعرت بامتعاض وخيبة أمل غريبة من شيء لم أزل إلى الآن أجهله، تماماً كما لا أعرف إلى الآن سبباً غير الذي ذكرته، حملني على أن لا أشعر بأي خوف حين تأكدت فيما بعد من أن السرطان الذي استمد اسمه من سرطان البحر، لأنه يشبه الخلية السرطانية تماماً، تمكّن مني.

في اليوم التالي قام البروفيسور ديللون بانتزاع اللحمية عبر عملية خفيفة بمرافقة الكاميرا من الداخل استغرقت 25 دقيقة بعد تخدير كامل، فعاد صوتي طبيعياً من دون بحة من بعدها مباشرة، لأن اللحمية التي نمت وتضخمت سنتيمتراً واحداً

من تكاثر الخلايا السرطانية فيها هي التي كانت سبب البحة في الصوت، ثم قال: «أنا مسافر إلى الهند لأسبوعين وسأتصل بك بعد 3 أو 4 أيام لأخبرك بنتيجة الفحص عند ورودها من المختبر».

واتصل بعدها من بومباي وقال: «للأسف أنت مصاب بسرطان في الحبال الصوتية. أريدك أن تعلم بأن الأمل بالشفاء موجود دائماً بعد العلاج. أنا لا أعرف حجم هذا السرطان، وقد اتصلت قبل قليل بأهم مختص بسرطان الحنجرة في بريطانيا، وهو الدكتور بيتر كلارك، وحددت لك موعداً معه، فقم بزيارته ولن تحتاجني ثانية بعد الآن وأتمنى لعلاجك النجاح». ثم أقفل الدكتور ديللون الخط ووجدت نفسي أيضاً لا أشعر بأي خوف، بل باستمرار الامتعاض فقط وخيبة الأمل من شيء لا أعرفه تماماً، وكأنه الحياة نفسها وقد غدرت بي.

بعد أسبوع زرت البروفسور كلارك، ووجدت مكتبه يلي قاعة بدت وكأنها «سوق الجمعة» الشعبي في بعض دولنا العربية، فقد كان فيها أكثر من 150 مصاباً بأنواع مختلفة من سرطان الرأس ينتظرون دورهم ليروه، فاستقبلني وقام بإلقاء نظرة عبر الكاميرا على حنجرتي، ثم قال إن عليه أن يعرف نوعية السرطان وحجمه وفي أي مرحلة هو ومدى استفحاله في المنطقة المتبرعم فيها، لأن للسرطان 4 مراحل: الأولى والثانية سهلة الشفاء، والثالثة

صعبة، أما الرابعة فهي أصعب وتنتشر معها الخلايا إلى الأعضاء القريبة معلنة اقتراب ساعة الحسم النهائية للحياة.

قال البروفسور كلارك: «سنقوم بفحصك بجهاز التصوير الإشعاعي (تي سْكَان) لتصوير الحنجرة والعنق والرئة» فعرفت أنه ينوي معرفة ما إذا ما كانت الخلايا المتسرطنة قد انتشرت في ما يجاور الحنجرة من الأعضاء، فانتظرت أسبوعاً لأقوم بالفحص الذي جاءت نتيجته لي كمن عثر على بئر ماء في الصحراء: لا انتشار أبداً، بل السرطان في بدايته ومحصور داخل منطقة الأوتار الصوتية فقط.

ثم طلب البروفيسور كلارك أن يقدمني إلى زميل آخر له، هو الدكتور كريستوفر ناتينغ، أشهر معالج لسرطان الحنجرة وجيرانها في الرأس بالعلاج الإشعاعي (راديوثيرابي) في بريطانيا، فقلت للبروفيسور كلارك: «ألست أنت من سيعالجني؟»، فقال: «أنا لا أعالج بالإشعاع، بل أقتلع الحنجرة اقتلاعاً. اقتلعها فقط في حال كان السرطان مستفحلاً فيها أو إذا ما فشل العلاج الإشعاعي. انتزعها بعملية جراحية، وسرطانك لا يحتاجني». ثم قدمني إلى الدكتور ناتينغ، فتعارفنا واتفقنا على الاجتماع في عيادته الخاصة يوم عيد الميلاد 2009 تماماً، أي بعد شهر تقريباً من لقائي الأول به في عيادة مقتلع الحناجر الشهير، البروفسور بيتر كلارك.

8

في أول زيارة قمتُ بها إلى عيادته يوم عيد الميلاد، قال لي الدكتور ناتينغ: «أنت محظوظ فعلاً يا سيد قبيسي». ثم بدأ يظهر منه ما يشير إلى رغبته في متابعة الحديث، لكنني قاطعته طبعاً: «من فضلك ستوب... أنا محظوظ؟ وتقول ذلك أيضاً؟.»

قاطعته بهذه العبارة لأنني اعتقدته يمزح معي وهو الذي يعرف أني كنت في وضع لا يسمح لي بالمزاح ولا بالاستماع إلى نكتة أو مزحة من أي نوع، فأنا مصاب بسرطان تأكدت أنه تبرعم في الحنجرة، ويسمونه «لارينكس» بالإنجليزية، وهو سرطان معتدل متى كان في بدايته، لأنه بطيء التبرعم وبطيء الانتشار.

ومن «إيجابيات» هذا السرطان أنه لا يتأخر في الإعلان عن وجوده في منطقة يطلقون عليها في عالم الطب اسم «صندوق الأوتار الصوتية»، أو «تفاحة آدم» كتعبير شعبي، وهي منطقة حساسة ومعزولة عن أعضاء في الجسم يمكن للخلايا المتسرطنة الانتشار فيها بسهولة.

أما أهم الأعراض التي يعلمك فيها بوجوده في تلك المنطقة فهي متنوعة، كألم شديد في الأذن، أو رائحة كريهة في الفم تستمر طويلاً، أو سعال لا يتوقف مع أي دواء، أو التعرض للحظات من الاختناق خلال النوم، أو فقدان للوزن من دون سبب، وهي أعراض مشتركة مع أمراض عادية أخرى. لكن أوضح الأعراض هي بحة في الصوت طارئة تأتيك فجأة من دون مقدمات. بحة عادية تظنها كالتي مرت بك سابقاً بعد صراخ أو نقاش حاد مثلاً، لكنها بدت لي هذه المرة بحة من دون سبب بالمرة.

وطمأنني الدكتور كريستوفر بأنه ليس من النوع الذي يمزح، وإلا ما كان يشرف على علاج أكثر من 700 مصاب بالسرطان شهرياً في مستشفى «لندن كلينيك» الشهير في العاصمة البريطانية، كما في مستشفى «رويال مارسدن» في لندن أيضاً، والمخصص طابقه الثالث كله له ولطاقمه من متخصصين بالعلاجات المتنوعة لسرطان الرأس بأعضائه المختلفة.

طمأنني بأنه لا يمزح، ثم كرر عبارته: «أنت محظوظ لأن سرطانك مازال طفلاً عمره بين 16 و 18 شهراً، وهو لايزال في مرحلته الأولى (T1) وبدأ بالدخول إلى الثانية (T2) وسببه التدخين، ونسبة شفائك منه عبر العلاج الإشعاعي (راديو ثيرابي) هي 95٪ وسنعمل على أن تتخلص منه بالإشعاع، عبر طريقة جديدة أنا الرائد فيها، وهو علاج لا يسبب ألماً على الإطلاق، لكن مضاعفاته هي المشكلة، وعليك أن تتحملها وترضى بها لأنها نتاج عملية شفاء من مرض صعب كما تعلم، فتناول ما استطعت من أطعمة كثيرة ومتنوعة منذ الآن واشرب من الماء ما استطعت استعداداً للعلاج بعد 11 يوماً». فأسرعت لتنفيذ ما قال ورحت ألتهم كل ما يقع أمامي وأشرب ما معدله 3 ليترات من الماء يومياً.

9

ثم أخبرني الدكتور ناتينغ قبل بدء العلاج بدقائق بأني ملزم بالخضوع لثلاثين جلسة إشعاعية مكثفة طوال 6 أسابيع، بواقع 5 جلسات أسبوعية، ما عدا السبت والأحد، أي من 4 يناير (كانون الثاني) إلى 12 فبراير (شباط) 2010، وهي 30 جلسة علاج إشعاعي. وقال إن التسليط المركز للإشعاع، وهو عبارة عن أشعة إكس مكثفة، يؤدي إلى «انتهاك وخربطة» في المنطقة المتسرطنة المنوي حرقها بالإشعاع وانتهاكها عن بكرة أبيها، وهي عملية شبيهة بحرب «الأرض المحروقة» للموقع الذي تعبث فيه خلايا تسرطنت مع الزمن بسبب التدخين وأصبحت خارجة عن القانون، أي كأنها فتحت جسماً على حسابها الخاص تعيش فيه، ومنه تهاجم الجيران بأفتك سلاح: التورم والتورم بلا توقف.

بهذا العلاج الإشعاعي تموت الخلايا السرطانية، ومعها تموت الخلايا الصحية أيضاً، إلا أن الأخيرة تعود وتتوالد صحية من جديد، فيما لا تعود المتسرطنة إلى الحياة ثانية، فيحدث الشفاء وتعود الأعضاء بعد 3 أو 4 أشهر إلى وظائفها كما كانت من قبل الإصابة بنسبة 99% تقريباً. أما نسبة الشفاء الكلي بعد نجاح العلاج الإشعاعي فهي 85% تقريباً، لأن خطر عودة التسرطن أو انتقاله إلى عضو آخر كالعنق أو الرئة مثلاً وارد ولو بنسبة ضئيلة لا تتجاوز 15% والسبب أن الخلية السرطانية خبيثة كالعقرب وداهية كالثعلب.

حين يهاجم الجسم الخلايا السرطانية بالمضادات، أو خلال تعرضها للعلاج الاشعاعي أيضاً، أو أي علاج، فإن بعضها يختفي كله من ساحة المعركة لينجو بنفسه كما يبدو، فتكر الخلايا وتفر كما وكأنها عصابة للجريمة المنظمة فارة من مطاردة العدالة، أو كما حركة مقاومة يقاتل رجالها بأسلوب العصابات جيشاً نظامياً جنوده مضادات يقوم الجسم بتجييشها بالكامل لمحاربة التسرطن. هو يهاجمها بجيش نظامي من الخلايا الصحية والمضادات، وهي ترد على الهجوم بالاحتيال وحرب العصابات والكر والفر. وقد أعجب الدكتور ناتينغ بهذه التعابير التي سمعها مني ولم يكن قرأها قبل الآن، بحسب ما قال، لأنها ليست طبية بل صحافية، لكنها تصوِّر برأيه حقيقة ما يجري في الموقع المتسرطن من عراك.

ما يجري في الساحة المتسرطنة هو معركة قتال شرسة بكل الأسلحة، وفيها تنتصر العصابات السرطانية دائماً، لأنها تحفر الموقع الذي تبرعمت فيه، كما يحفر المقاومون الأنفاق وتدخل إلى عمق النسيج العضوي أو اللحمي، ومنه تتسلل لتجتاح الجسم كله بالملايين وتسيطر عليه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، إلا إذا طلب الجسم دعماً من الخارج يأتيه كنجدة مزودة بأمضى سلاح: الجراحة بإزالة التورم، أو عبر العلاج الكيماوي أو الإشعاعي، أو بالليزر بمساعدة التبريد المكثف. إن العلاجات المضادة للتسرطن كثيرة، وقد تم تطويرها في السنوات العشرين الأخيرة، ومنها جهاز «سايبر نايف» الإشعاعي الجديد، وهو جهاز قادر على إزالة بعض أنواع السرطان بجلسة علاج واحدة لا تستمر أكثر من نصف ساعة.

10

ذكر لي الدكتور ناتينغ أيضاً أني ملزم بزيارته طوال 5 سنوات إذا ما نجح العلاج، وبواقع مرة كل شهر في العام الأول، ومن بعده مرة كل شهرين ثم كل 3 أشهر ثم مرة كل 6 أشهر للفحص الطبي الرقابي، لا العلاجي، احتياطاً من عودة السرطان إلى مكانه ثانية، أو إلى موضع آخر. ثم حذرني منبهاً: «أنا اشترط عليك أمراً واحداً فقط، فكل واشرب وافعل ما تشاء، لكن إياك والعودة إلى التدخين، لأنك إذا عدت للسيجارة، فإنك بذلك تستدعي السرطان لزيارتك ثانية، لا بنسبة 15٪، بل 40٪، وأكثر».

شكرته وطمأنته بأن طلاقي للسيجارة التي تحولت معها عبر السنين إلى «مدخنة» تشعل بين 25 و 30 سيجارة يومياً، هو

حاسم وغير رجعي وعلى مسمع وشهود، أهمهم ابنتي التي وعدتها بأنه لا عودة ثانية إلى التدخين إطلاقاً. ثم انتقلنا، الدكتور وأنا، إلى مكان العلاج الإشعاعي حيث يعمل هناك 8 مختصين في الطابق الثالث تحت الأرض في مبنى خاص بعلاج الأورام وتابع لمستشفى «لندن كلينك» القريب أيضاً من حيث أسكن.

في ذلك الطابق وجدت نفسي وحيداً في ميدان المعركة ضد جيش جنوده من ملايين الخلايا السرطانية المتسلحة بالخبث والدهاء، وليس في حوزتي وأنا وحيد في الغرفة المصفحة سوى سلاح واحد ضدها من حدين: أمل نابع من إيمان شامل ومطلق بمبدع الحياة والموت ومحقق الشفاء لمن يشاء، وجهاز للقصف الإشعاعي استلقيت على ظهري تحت فوهته 12 دقيقة في كل جلسة، وطوال 6 أسابيع مرت خلالها الأمور في أول أسبوعين منها سهلة تماماً، كأنها نزهة بالفعل، إلى أن بدأت المضاعفات تظهر مع بداية الأسبوع الثالث، وما أدراك ما المضاعفات، فهي ما لا تعرفه الحواس الخمس ولا خطر على قلب بشر.

وحين انتهى العلاج قمت بزيارة الدكتور ناتينغ ليفحصني من جديد بعد أن سبق وطلب صوراً بأشعة «السكنر» (المسح الاشعاعي) للصدر والرئة ولأعضاء مجاورة للحنجرة، فطمأنني بأن كل الصور التي تم التقاطها لي قبلها بأسبوع، أي بعد انتهاء

العلاج بشهرين تقريباً، دلت على عدم عودة خلايا التسرطن أو فرارها إلى أي عضو آخر في الجسم، فأطلق سراحي من العلاج وحافظ على طلبه بأن أزوره مرة كل 45 يوماً للمراقبة فقط، وهو خبر أثلج الصدر لأنه كان ملحقاً بخبر مفرح آخر، وهو أن الصور والفحوصات على موضع التسرطن السابق دلت أن عودته لن تكون بالنسبة لي بمقدار 15% كما هي العادة «بل بنصف هذه النسبة تقريباً، فعد إلى حياتك طبيعية كما كانت» وفق تعبيره. ثم كرر التحذير: «كل واشرب وافعل ما تشاء، ولكن إياك أن تعود إلى السيجارة».

11

وعلى ذكر السيجارة التي هي المسبب الأول لسرطان الحنجرة، إضافة إلى الشيشة والسيجار والمشروبات الكحولية وتنشق المواد الكيماوية، وكذلك الاسترجاع المعوي لبعض السوائل، فقد دلت آخر أبحاث علمية قام بها عالمان بريطانيان ونشرا نتائجها، أن كل 15 سيجارة يقوم أحدهم بتدخينها تؤدي إلى تغيير في الحمض النووي (دي.إن.ايه) للخلية، بحيث تفقد نظام اتساقها مع باقي الخلايا وتصبح مختلفة، إلا أن الطب لا يعرف إلى الآن لماذا يسبب التدخين السرطان لأحدهم ولا يسببه لسواه، ولا كيف يحدث التسرطن بسبب التدخين. كما اكتشف العالمان التركيب الجيني لخلية سرطان الرئة، واكتشفا نظام عمل الخلية «الناقلة» أي المتبرعمة في موضع ثم المنتقلة إلى سواه.

وفي إحدى الزيارات أخبرني الدكتور ناتينغ بأن الأسلوب الإشعاعي المكثف الذي هو رائده في بريطانيا أنقذ آلاف المصابين بسرطان الحنجرة من أحد المضاعفات الخطيرة، فالعلاج الإشعاعي التقليدي السابق كان يسبب جفافاً في الفم والحلقوم مدى الحياة لمن تم شفاؤهم. أما مع العلاج الإشعاعي الجديد فإن الجفاف في الفم يزول بعد عام على الأكثر. والمضاعفات على أي حال هي أسوأ ما في العلاج الإشعاعي لسرطان الحنجرة، ولولاها لكانت مكافحته كنزهة ممتعة.

ولكل سرطان يتمكّن من الحنجرة علاج إشعاعي مختلف، ترافقه وتليه مضاعفات متنوعة القوة بنسبة اختلاف العلاج والأشخاص. لكن الجميع سيعاني من بعض المضاعفات نفسها، فبعضهم يشعر بتعب وخمول وإرهاق بعد كل جلسة علاج إشعاعي، وهو ما لم أشعر به أنا إطلاقاً، بل على العكس، فقد كنت أمشي مسافة 3 كيلومترات من البيت إلى مستشفى «لندن كلينيك»، حيث كنت أتلقى العلاج 12 دقيقة في اليوم كمعدل وأعود منه مشياً من دون الشعور بأي إرهاق.

ويتعرض جلد العنق الأمامي مع العلاج إلى تحرقات بسبب الإشعاع المسلط عليه فيصبح أحمر اللون بعد الأسبوع الثاني من بدء العلاج تقريباً، كما يسقط الشعر النابت فيه، حتى بعض الشعر

النابت أسفل الرقبة من الخلف يتساقط أيضاً، من دون أن يلحظه أحد إلا إذا كان حلاقاً يرى شعرك من الخلف وهو يقصه. إلا أنه، وبعد 3 أو 4 أشهر من نهاية العلاج يبدأ الشعر بالنمو ثانية، لكنه يصبح أكثر نعومة واسوداداً عما كان عليه، وشبيهاً بشعر الأطفال الصغار.

وتشبه التحرقات التي تصيب الجلد الأمامي للعنق تلك التي تصيب من تعرض لأشعة الشمس لساعات على الشاطئ، لكنها أشد عنفاً وخطورة، وتحمل المصاب بها على الشعور برغبة في حك الجلد وهرشه بالأظافر، كما يحدث مع المصابين بمرض «الأكزيما» تماماً، لذلك يستخدم المريض مرهماً للتليين والتلطيف خلال العلاج، وآخر بعد انتهاء العلاج يساعد على عدم تطور المشكلة الجلدية إلى دائمة ومعقدة.

هذا التحرق أصابني باعتدال في جلد مقدمة العنق، لكني لم أشعر بأي أثر سلبي آخر، ولا حتى برغبة في الحك والهرش إلا مرة أو مرتين خلال الليل على ما أذكر، لأن المرهم كان يساعد على التخفيف من حدة التحرق وآثاره.

12

والأسوأ من التحرق في الجلد، هو جفاف كلي تقريباً يحل على الفم والحلق ويصل إلى الحنجرة. جفاف تشعر به منذ بداية الأسبوع الثالث من العلاج الإشعاعي ويستمر شهراً كاملاً بعد انتهاء العلاج، ولا يريحك منه بعض الشيء سوى شرب الماء، لأن اللعاب يختفي من فمك بالمرة، فإما أن تتحمل وتصبر على هذا العذاب الأليم، أو أن تسرع إلى الطبيب ليصف لك جرعات من اللعاب الاصطناعي، وهو ما رفضت أن أفعله، لأنه مقرف ولا يحل المشكلة تماماً.

تشعر مع هذا الجفاف عند ابتلاع لعابك غير الموجود أصلاً أن عملية الابتلاع لن تكتمل، وأنك تكاد تقتلع حنجرتك من

مكانها. تشعر بانسداد شبه كلي للفم من نهايته، كما وللحلقوم ولبداية الجدران النسيجية المحيطة بالحنجرة، فتحس بأنك ستموت اختناقاً. ينتابك هذا الإحساس كلما حاولت ابتلاع لعابك بشكل خاص. وسواء كان في فمك لعاب أم لم يكن، فإنك ستقوم مضطراً بعملية الابتلاع لأنها غير إرادية ولا تستطيع أن تتحكم بها.

أما حين تبتلع «اللاشيء» وتضغط على عضلات الحلقوم لتتم عملية ابتلاع الماء أو الهواء أو اللعاب أو الطعام، فإنك ستشعر بألم في الحنجرة المحترقة لا يطاق. ألم لئيم ولا تقدر عليه، إلى درجة أنك تعصر نفسك لتتحمله، وأنا حين أكتب هذه الكلمات وأتذكر ذلك الألم أشعر فعلاً مع الذين ينتابهم من مرضى السرطان الحنجري في هذه اللحظات. إنه أسوأ ألم شعرت به في حياتي، لأنه دائم ليل نهار ولا يتوقف وليس له دواء يقضي عليه، سوى دواء يصفونه لك، وتناوله أسوأ من الألم نفسه، لأنه يخفف الألم لربع ساعة فقط، بحيث يقلص شعورك بالألم من ابتلاع الطعام، لكنه يسبب لك الجفاف في الإمعاء، والإمساك الكلي تقريباً، فلا تدخل إلى المرحاض لقضاء حاجتك طوال أيام، وقد بقيت أكثر من أسبوعين بعيداً عن المرحاض بسببه، وهناك أسوأ من هذا كله، وهو القيح اللعين.

من مضاعفات العلاج الإشعاعي لسرطان الحنجرة أيضاً انعدام المذاق، المؤدي إلى فقدان الشهية، أي أنك لا تعود تعرف

نوع الطعام الذي تتناوله إلا إذا نظرت إليه، ولهذا السبب تفقد رغبتك في تناول الطعام بشكل كلي تقريباً، فيبدو الهزال عليك ويبدأ وزنك بالتناقص، وتختفي النضارة من ملامح الوجه فتبدو لنفسك وللآخرين كما وكأنك ترتدي قناعاً من الشمع محدقاً باللاشيء، بلا حياة وبلا هدف.

ولأنك مضطر لتناول شيء من الطعام، وإلا أخذوك إلى المستشفى لإنزاله بالأنابيب إلى معدتك، حينذاك تقبل بالشعور بألم فظيع حين تنزلق اللقمة عبر حنجرتك المحترقة هي وجيرانها بالنار الإشعاعية.

13

هناك أيضاً المضاعفات النفسية التي لم أشعر إلا بقليل منها، كإحساسي طوال فترة العلاج بأني مريض حقيقة، أو كرغبتي في عدم رؤية أحد أو التحدث إلى أي شخص طوال أسبوعين تقريباً. لكن البعض يشعر بالخوف الشديد وبنوبات من الذعر مستمرة وبتعتعات من الهستيريا، كما وبغموض تفاصيل دورة الحياة اليومية نفسها، بحسب ما قرأت وما سمعته بنفسي من كويتي تعرفت إليه في المستشفى وكان يرافق شقيقه القادم من الكويت للعلاج من سرطان حنجري.

حدثني الكويتي عن شقيقه بأنه ويكاد يغمى عليه أحياناً من شدة الهلع والخوف، وقال إن شقيقه كان يستغرق بعض الوقت

ليتذكر أشياء مهمة، مع أن عمره لم يكن يزيد على 44 سنة. وذكر لي أنه كان لا يرغب برؤية أحد، حتى أبويه وإخوته في البيت، وكان كالخارج عن ذاته من شدة القلق والخوف وعدم استيعاب فكرة إصابته بالسرطان.

أما أسوأ المضاعفات على الإطلاق فهو القيح، ولولا القيح والألم الناتج منه لكان العلاج الإشعاعي مقبولاً إلى حد ما، برغم فظاعته. يخرج القيح من موضع الاحتراق في الحنجرة وجوارها في كل مرة قمت فيها بعملية ابتلاع اللعاب أو أي شيء آخر، كما تخرج الحمم النارية السائلة من جوف البراكين، وكميته هي في حدود بصقة تقريباً. وخروج القيح ناتج من ضغطك على عضلات الحلقوم ليتحقق الابتلاع الذي لا سيطرة لك عليه لأنه غير إرادي كما ذكرت، ورغبتك فيه تزداد بتزايد الجفاف والنشفان في الفم والحنجرة.

ولأن عملية الابتلاع مؤلمة جداً، خصوصاً عند شرب الماء لأن ابتلاعه فراغي يعتمد على ضغط العضلات ليتسرب إلى الحلقوم، فإن القيح يلتصق بالحنجرة كسائل شبيه بسيولة العسل، فلا يمكنك ابتلاعه إلى المعدة لأنه مطاطي اللزوجة وسيولته غير كاملة، لذلك لا يخرج من تلقاء نفسه من الحنجرة لتبصقه إلى الخارج، فيبقى مزعجاً كما حبة الحصى المؤلمة في

الحذاء، فتضطر للضغط ثانية لإخراجه من فمك وهو ما يؤلمك أكثر، ولأن هذا يحدث كل دقيقتين، كمعدل، فمن أين لك أن تنام؟ ومن أين لك أن تشعر بنوع من الهدوء والسكينة في صحتك العامة طوال شهر ونصف الشهر من قيح يؤلمك طوال 24 ساعة في اليوم بلا توقف؟

لا أبالغ إذا قلت إنني كنت أستهلك أكثر من 3 علب كلينكس من الحجم الكبير كل يوم للتخلص من القيح الذي كان يخرج من نسيج حنجرتي المحترق على مراحل، بعد كل عملية ابتلاع كنت أقوم بها. ولا أبالغ إذا قلت إنني فكرت مرات ومرات باللجوء إلى المستشفى لإيجاد حل لقيح أنهكني ليل نهار طوال 45 يوماً وليس له دواء، بل ليس هناك أي دواء لما طرأ على حنجرتي وجوارها من مضاعفات بعد علاج جعلها شبه ميتة لا ينفع معها أي دواء إلا الصبر على الآلام.

جعلني نجاح العلاج أستعيد أكثر من 90% مما فقدته بسبب الإشعاع، لكني بقيت على أمل باستعادة الباقي مع الوقت وفق ما أكده الطبيب المختص، لذلك شعرت بارتياح لكوني كتبت ما أعتقد بأنه قد يملأ فراغاً حول موضوع جدي وحساس وخطير، ولم يكن مشروحاً بالطريقة التي لخصتها، مع أنني لا أعرف ما إذا كنت نجحت أو فشلت، لكني متأكد من صحة نصائح قليلة

أريد تكرارها على مسامع من قد يكون سمعها عشرات المرات في السابق بالتأكيد:

ابتعد عن السيجارة قبل أي شيء آخر، ولا تظن أنك لا تشعر كثيراً بمساوئها عليك، لأن السرطان ينشأ صامتاً بسببها ويتحرك ببطء شديد داخل النسيج اللحمي للعضو الذي تبرعم فيه، وقد يكون تمكن فيك بسبب السيجارة الآن وأنت لا تشعر، فتخلى عنها لأنه خير لك أن تخسر متعة التدخين كل ساعة من أن تخسر حياتك كلها.

تعرف إلى نقطة الضعف في جسمك واعتنِ بها، لأن السرطان ينفذ منها ليتمكن منك بقوة. وليس لك إلا الطبيب المختص ليشرح لك كيف تعتني بنقطة الضعف لديك.

حاول أن تتناول أطعمة متنوعة الغذاء وغنية بالخضار، وتناول الفاكهة المتنوعة ما استطعت، ومارس بعض الرياضة وأهمها المشي والسباحة، وابتعد عن التوتر العصبي ومسببات السمنة ما استطعت، وكن مرتاح البال بعد ذلك، لأنه إذا كان لابد مما هو كائن، فبإمكانك أن تقول في اللحظة الأخيرة: لقد حافظت على نعمة الحياة ما استطعت، ولم أنته رخيصاً. لقد نزلت إلى الحلبة وسددت الضربات واللكمات إلى عدو لدود حتى الرمق الأخير، ولم يهزمني ملاكم صغير ومغمور، بل بطل العلل والأمراض العالمي للوزن الثقيل بامتياز.

وكنت أرغب في نصيحة أخيرة لمن يسعون إلى مواجهة السرطان بشجاعة تفوق قوة الملاكمين، بحيث لا يشعر الإنسان بأي خوف حين يعلمه طبيبه بإصابته بالمرض. لكن الشجاعة أمام ملك الأمراض وبطل العلل بالذات ليست هينة على الإطلاق، فهو عنوان الموت ورمز لآلام ومضاعفات فظيعة، والشجاعة أمامه لا تأتي من النصائح أو الكتب والمحاضرات.

إنها نعمة يسكبها مبدع الكون والوجود فتستقر في القلب وخلاياه بأقل من ثانية واحدة، فابحث عنها إذا أردت ولن تتعب لتعثر عليها لأنك أينما قلبت وجهك في الأرض أو في السماء فسترى الطريق معبدة أمامك إليها، وقد ترى على الطريق لوحة مرصعة ببيتين من الشعر لا أدري وسط المعميات الأدبية والانتحالات عبر التاريخ من كان قائلهما الحقيقي قبل مئات السنين، إلا أنه كان صاحب خيال واسع، فقد جلس وكتب ليخاطب القلقين الباحثين عن أسباب العلل وعن مصادر الشفاء في عصره وكل العصور، وأحب أن يختصر كل شيء بكلمات خالدات فقال:

داؤك منك ولا تشعر ... ودواؤك فيك وما تبصر

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

رحلتي مع السرطان

السرطان أخطر إرهابي، فضحاياه كل عام أكثر من 8 ملايين. مع ذلك، فمعلومات الناس عنه قليلة لأنها غير متوفرة بأسلوب سهل وبسيط يشجعهم على اقتنائها في كتاب يحملونه إلى بيوتهم ليفيد منه الجميع.

وأفضل من يكتب عن السرطان ليس الطبيب وأسلوبه العلمي المعقد، بل المختص بجمع المعلومات ونقلها، خصوصاً إذا كان صحافياً عانى هو نفسه من المرض وخضع للعلاج طوال 6 أشهر، وهو ما فعلته في هذا الكتاب الذي تعمّدت أن يكون صغيراً لتسهل قراءته، بحيث يعرّفك إلى مرض سلاحه خلايا تتبرعم وتتشكل كما رجال العصابات في دولة تقاتلها بجيش نظامي لا يمكن أن يهزمها إلا بدعم خارجي، أي بالعلاج.

يروي هذا الكتاب بطريقة ما القصة كما حدثت معي حين أحسست بأول أعراض السرطان، وكيف شعرت بقوة غريبة جعلتني لا أخافه على الإطلاق، وكيف مضيت إلى طبيب قام بتنظيم العلاج وشعوري خلاله وبعده بمضاعفات هي ما لا تعرفه الحواس الخمس ولا خطر على قلب بشر.

كمال قبيسي


ISBN 978-9953-566-49-8

